# هل نحن قردة مقلدون؟

شاكر النابلسي

-١-

**معظم الأمم والحضارات والثقافات تتلاقح.**

الأمم الواعية هي الأمم التي تأخذ من الغير أحسن ما عنده. أي تأخذ الوجه الحسن وتترك الوجه القبيح. عندما امتدت يد الغرب على التراث الإغريقي في عصر التنوير في القرن السابع عشر والثامن عشر، لم يأخذ الغرب من هذا التراث غير الوجه الحسن، وترك الوجه القبيح. أخذ الفلسفة والعلوم والفكر والديمقراطية، وترك الوجه القبيح في المجتمع الإغريقي.

وعندما امتدت يد الغرب إلى التراث العربي لم تأخذ منه كل شيء، وإنما أخذت الحسن وتركت القبيح. أخذت منه ما تم أخذه من قبل العرب عن الإغريق. فأخذت منه العلم في أشكاله كافة ، وتركت له القيم الاجتماعية والسياسية المتخلفة، لأن هذه القيم تخصه وحده، ولا تخص شعباً آخر، ومنها عدم مساواة المرأة بالرجل وضرب المرأة، وإجبارها على الاستجابة تحت أي ظرف على النداء الجنسي للرجل وإلا كان مأواها جهنم، وعدم قبول شهادتها وحيدة، وعدم مساواتها بالإرث مع الذكور، وحرمانها من حقوقها السياسية والوظيفية، وتكريسها للعَلف والخَلف، والسماح بالزواج بأربع نساء في وقت واحد.. الخ.

كذلك فعل اليابانيون عندما بدأوا بالتلاقح مع الحضارة الغربية بالقوة بدءاً من عام ١٨٥٢، فأخذوا علمها وتركوا قيمها الاجتماعية، التي لا تتناسب مع قيمهم.

-٢-

العرب في حاضرهم فعلوا عكس ما فعلته الشعوب الأخرى. فأحبوا الحياة على الطريقة الأمريكية، وأحبوا لباسها وطعامها وشرابها وفنها، ولكنهم أخذوا منها أقبح ما لديها.

فنراهم في فنهم في السنوات الأخيرة، قد تركوا الفن الأصيل، وأخذوا بأسباب الفن الهزيل. فظهرت مجموعات ضخمة من المغنين المقلدين للفنانين التجاريين الأمريكيين الذي حوّلتهم شركات الإنتاج الفني من مشاريع فنانين إلى "منتجات" فنية، يتحكم فيها المنتج أو الشركة المنتجة. وأخذ العرب بمنهاج المسوخ الفنية. فأخذوا الموسيقا الأمريكية الشعبية الراقصة، وتركوا الفن الموسيقي الراقي. وأصبحت أم كلثوم وأصبح وعبد الوهاب والسنباطي والموجي من تراث الأسلاف الذي لا يسمعه غير كبار السن والدراويش. ولم تعد هذه الأصوات وهذا الفن يمثل الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وإنما أصبحت الشقة بيننا الآن وبين هذا الفن الأصيل وكأنها قرون طويلة. واستطاعت شركات فنية عربية تسليع الغناء والموسيقا من عدة "فنانات" و"فنانين" نجوماً ساطعة في عالم الغناء الشعبي الراقص، وتلك واحدة من نجاحات الثقافة الشعبية الأمريكية ذات الوجه القبيح في رأي البعض، وذات الوجه الحسن في رأي البعض الآخر الذي يرى أن تسليع Commiditization الفن على هذا الشكل الأمريكي بدءاً من مادونا وجانيت جاكسون وانتهاءً ببريتني سبيرز وجيزي Jayz، وغيرهم، من قبل شركات تسليع الإنتاج الفني الأمريكي كشركة Jiva في مجال موسيقا "البوب"، وكشركة IDJMG في مجال موسيقا "الراب" وكشركة Newline وشركة Miramax في مجال السينما، هو من مفاتيح العولمة والإطلالة على الحياة الجديدة والمجتمعات الجديدة مما ييسر غداً شق أوتوستراد الحداثة وليس زاروبها في العالم العربي الذي بدأ سياسياً في العراق بعد التاسع من نيسان ٢٠٠٣ ، وبدأ فنياً في لبنان- أكثر الدول والشعوب العربية قرباً من الغرب - من خلال "تلفزيون الواقع " Reality TVالذي هو نتاج أمريكي مئة بالمئة، ومن خلال البرامج والمسابقات الفنية التلفزيونية التي هي نسخة طبق الأصل عن البرامج التلفزيونية الأمريكية الفنية.

-٣-

ومن هنا، بدأت المؤسسات الدينية تهاجم مثل هذه البرامج ومثل هذا الإنتاج الفني الذي عدته إنتاجاً هابطاً يسيء إلى الدين وقيمه، ونادت بمنع بث مثل هذه البرامج. وفي الواقع فإن احتقار المؤسسات الدينية ورجال الدين لمثل هذه البرامج نابع من علمهم بأن هذه البرامج وهذا الإقبال الشديد عليها من قبل جمهرة الشباب من صغار السن، سوف يفتح غداً أبواب العولمة وأبواب الحداثة على مصراعيها أمام المجتمعات العربية، ويصرفهم عن جهاد الكفار، وهو ما لا تقبله المؤسسات الدينية التي تريد من الشباب التوجه نحو الجهاد ضد الكفار الأجانب، بدلا من تبني فنهم وتبرجهم.

واعتبرت المؤسسات الدينية أن مثل هذه البرامج مصيبة كبرى حلّت بالمسلمين. وفي الكويت صدرت فتوى دينية شهيرة بتحريم غناء النساء وتحريم الاشتراك في البرامج الغنائية، وحرمت الفتوى الصادرة على أية جهة تنظيم حفلات غنائية لمصلحة هذه البرامج ، أو تحت أي اسم آخر إذا تضمنت ممارسات يحظرها الإسلام. كما حرمت حضور أو مشاهدة مثل تلك الحفلات، ودعمها بأي شكل من الأشكال. وقامت ضجة كبيرة في المجتمع الكويتي. وهدد وليد الطبطبائي، عضو مجلس الأمة الكويتي، وأحد كبار الاسلامويين المعارضين للبرنامج بمساءلة وزير الإعلام أمام البرلمان حول هذه القضية.

-٤-

بالمقابل، كان للمفكرين الحداثيين الليبراليين رأي مخالف آخر. فعلى حرب المفكر اللبناني يرى وجهاً آخر لهذا التسليع الفني على الطريقة الأمريكية. فهو يرى في مقاله (ستار أكاديمي ونانسي عجرم: ما الذي جنيناه من ثقافة الأعمدة، جريدة "السفير"، ٢٠٠٤/٦/٢٤) أن "ثمة من يتعامل مع هذه الظاهرة بعين السلب والعداء، إذ يرى بأنها مظهر يدلّ على فقر الثقافة وانحطاط الفن، بل هناك من يتحدث عن "موت الثقافة" وتسليع العقول والأجساد، معتبراً ذلك نتيجة سيئة لعصر العولمة والتقنية. فمن جهتي أنا أقرأ الظاهرة بصورة مختلفة. فالعولمة، بما تعنيه من تشكل مجتمع المشهد والشبكة والصورة، قد فتحت إمكانات لا سابق لها للتعدد والتنوع والتفرد في مختلف مجالات الإنتاج المادي والرمزي. نحن إزاء واقع جديد لا يغني معرفةً ولا يجدي عملاً، وصفه بـ "التفاهة" كما ينعته الكثيرون من أصوليي الحداثة والعقيدة، بأفكارهم الحديدية وذائقتهم المتحجرة، من حيث تعاملهم مع برامج مثل "سوبر ستار" أو "ستار أكاديمي" أو انتخاب ملكات الجمال. الأجدى والأغنى قراءة الواقع لمعرفة ما طرأ عليه من تحولات، من حيث مشهده ونظامه ومفاهيمه وقواه وأدواته. وأبرز هذه التحولات هو تغيّر العلاقة مع الواقع والحقيقة، بعد تشكل الواقع الافتراضي والاقتصاد المعرفي وبروز الإنسان الرقمي والفاعل الميدائي. وما تلفزيون الواقع إلا ثمرة من ثمار هذا التحول."

-٥-

راح العرب يقلدون الأمريكيين تقليد القردة في المأكل، والمشرب، والملبس فقط.

فأخذ العرب من الأمريكيين طريقتهم في التهام الوجبات السريعة. فانتشرت مطاعم هذه الوجبات انتشار مطاعم الفول والحمص والفلافل والشاورما. علماً أن لا موجب لهذا اللون من الطعام في العالم العربي. ولكنه تقليد القردة الأعمى العربي للغرب وللأمريكيين على وجه الخصوص. فإذا كانت هناك موجبات أو دوافع لوجود الوجبات السريعة في أمريكا، فهي سرعة حركة الحياة الأمريكية، وكون العامل والطالب والموظف الأمريكي لا يجد وقتاً كافياً لإعداد طعام صحي وجيد. فكان أن تم اختراع أو إيجاد نظام الوجبات السريعة التي تلائم المجتمع الأمريكي السريع الخطوات والحركة أكثر من أي مجتمع آخر. أما في العالم العربي البطيء الحركة والذي يمشي مشي السلحفاة، والذي ما زال يقضي نصف نهاره نائماً في العسل الأسود، والنصف الآخر متثائباً يهشّ به الذباب في المقاهي وعلى مصاطب المساء، فما زال الطعام العربي الذي هو تركي في أصله، والذي يتطلب إعداداً يطول وقته هو الطعام الملائم نتيجة للحياة العربية ذات الإيقاع البطيء جداً.

فكيف نريد من السلحفاة أن ترقص على أنغام "الراب" الأمريكي السريع الايقاع، وتأكل الهامبرجور الأمريكي، وتلبس الجينز؟

وهل لا يرى العرب في أمريكا غير ما يعتبره البعض وجهاً قبيحاً؟

انها صورة فريدة وغرائبية تلك الصورة العربية المتناقضة بين الراقصين في البرامج الغنائية، الذين يغنون للحب وللحياة، وبين الملثمين الإرهابيين الخاطفين للأبرياء، في الجانب المظلم من العالم العربي.

## العقول والكفاءات العراقية

# بين مطرقة العنف وسندان الهجرة

د.عماد علو
باحث وكاتب

المقصود بالعقول والكفاءات العراقية كل كفاءة وخبرة في مختلف المجالات الإنسانية والعلمية، في الطب، الهندسة، الحقوق، الاقتصاد، الصحافة، الإعلام، الصيدلة، اللغات، الفنون وغيرها سواء ممن كان يحمل شهادة أكاديمية أم لا. فالكثير من الخبراء أو العقول يحملون شهادة البكالوريوس مثلا لكنهم من ذوي الخبرات أو المعرفة أو التخصصات التي تركت العراق ويمكن عدها من العقول المهاجرة. ونستطيع القول إنّ الأشخاص الذين يعملون بعقولهم من شغيلة الفكر ممن اثبتوا كفاءة وكانت أو صارت لهم خبرات علمية أو أكاديمية أو فنية يمكن اعتبارهم من العقول المهاجرة أو التي هاجرت من العراق. فالأطباء الجراحون والأطباء الاختصاص والأساتذة الجامعيون في الحقوق والكومبيوتر والعلوم والإدارة والإحصاء والمحاسبة وغيرها في مختلف التخصصات وكذلك الدبلوماسيين والعسكريين والمهندسين والكتاب والصيادلة والفنانين ممن عملوا في المؤسسات العراقية أو غيرها هم من العقول التي تشكل ثروة وطنية عراقية. وهؤلاء الأشخاص سموا بـ (العقول المهاجرة) لا نهم يعملون بعقولهم من اجل المجتمع ومن اجل سعادة الإنسان وقد تميزوا بذلك وهاجروا من العراق بفعل أسباب كثيرة.ونعتقد أن كل عراقي —مهما كانت أصوله أو ديانته أو قوميته أو مذهبة - غادر الوطن لأي سبب كان هو عقل وهو طاقة أو ثروة وقوة مهمة لا يمكن الاستغناء عنها من الدولة ومن المجتمع.

إن هجرة العقول العراقية ليست بالظاهرة الجديدة فمنذ اندلاع الحرب العراقية — الإيرانية عام ١٩٨٠ أصبح العراق بلدا غير آمن للكثير من الكفاءات والعقول العراقية نتيجة تعطل القوانين وانتشار قوانين عسكرة الدولة والمجتمع مما ترك أثرهُ البليغ على هجرة العقول التي لا يمكن أن تعيش في ظل أجواء الحروب.فاختار العديد من تلك العقول والكفاءات مغادرة العراق بطرق مختلفة حفاظا على روحه وبحثا عن الأمان والحرية والاستقرار بعد أن سيق العديد من حملة الشهادات العليا والأطباء والمهندسين والعقول في مختلف التخصصات إلى محرقة الحرب العراقية — الإيرانية تحت اسم الدفاع عن الوطن من الخطر الخارجي. وبعد مغامرة غزو الكويت التي قام بها النظام السابق عام ١٩٩٠ وحرب الخليج الثانية ١٩٩١ وفرض الحصار الاقتصادي على العراق والذي كان من نتائجه الخطيرة أن الآلاف من الكفاءات والعقول العراقية لم تعد تشعر بالأمان والاستقرار في ظروف وأجواء الحرب التي عاشها البلد كما لا يمكن إغفال حقيقة أن الحصار الاقتصادي ضد الشعب العراقي جريمة ضد الإنسانية وهو عقوبة قاسية ضد الأبرياء وقد تركت أثارها على عموم الشعب العراقي ومنهم الشباب والعقول والخبرات.

بعد عام ١٩٩١ رأت الولايات المتحدة الأمريكية أن الفرصة باتت مواتية لتفريغ العراق من كفاءاته العلمية، حيث ركزت على ملاحقة العلماء والخبراء الفنيين العراقيين كما عبر عن ذلك بوضوح ؟مارك كلايتون؟ في أكتوبر ٢٠٠٢ حين كتب في صحيفة ؟كريستيان ساينس مونيتور؟ يحذر من العقول المفكرة قائلا: (إن هؤلاء العلماء والفنيين أخطر من أسلحة العراق الحربية). وقد اتخذت واشنطن العديد من الإجراءات لتحقيق هدفها في تفريغ العراق من علمائه قبل إعلان الحرب عليه، فقد أصرت على تضمين قرار مجلس الأمن رقم (١٤٤١) الذي صدر عام ٢٠٠٢ فقرة تجبر العراق على السماح للمفتشين الدوليين باستجواب علمائه وفنييه حتى لو تطلب الأمر تسفيرهم هم وعائلاتهم خارج البلاد، لضمان الحصول على معلومات منهم عن برامج التسلح العراقية المزعومة، وفي مطلع عام ٢٠٠٣ أقر الكونكرس الأمريكي قانون (هجرة العلماء العراقيين) والذي ينص على منح العلماء العراقيين الذين يوافقون على تقديم معلومات ؟ذات مصداقية؟ بشأن برامج التسلح العراقية تصريح إقامة دائمة في الولايات المتحدة.

وتشير الدراسات انه غادر العراق ما بين عامي (١٩٩١ و١٩٩٨) أكثر من ٧٣٥٠ عالما، تلقفتهم دول أوربية، وكندا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها، ومنهم(٦٧٪) أساتذة جامعة و(٢٣ ٪) يعملون في مراكز أبحاث علمية ومن هذا العدد الضخم (٨٣٪) درسوا في جامعات أوربية وأمريكية، أما الباقون فقد درسوا في جامعات عربية أو في أوربا الشرقية ويعمل من هؤلاء في اختصاصهم (٨٥٪).

بعد التاسع من نيسان عام ٢٠٠٣ أكدت مصادر علمية عراقية عديدة أن الحرب وعمليات النهب والسلب التي أعقبتها دمرت أكثر من (٧٠٪) من المعامل والأجهزة داخل الجامعات العراقية ومراكز البحث العلمي، التي خسرت حتى الآن جهود الآلاف من حملة الماجستير والدكتوراه في مختلف الاختصاصات وأشارت دراسات وتقارير دولية مستقلة مؤخرا ان ٨٠٪ من اطباء العراق غادروا بلدهم لأسباب مختلفة في مقدمتها الخوف على حياتهم من العنف المتصاعد في العراق. وكانت مصادر عديدة قد حذرت من مخططات تهدف إلى اغتيال النخبة العراقية من أصحاب ؟الياقات البيضاء؟ على حد تعبير الناطق السابق باسم قوات الاحتلال في العراق الجنرال ؟مارك كيميت؟ الذي كشف عن حملة واسعة من الاغتيالات جرت في العراق واستهدفت الطبقة المتعلمة والمثقفة، مشيراً إلى أن عددهم بلغ منذ أيار ٢٠٠٣ ما يقرب من ١٠٠٠ مواطن عراقي. واستمر هذا العدد بالتصاعد ليصل إلى أرقام مفزعة شملت عشرات الألوف من العقول العراقية حسب التقارير التي نشرتها مصادر مستقلة.

وتشير تقارير المراقبين أن إسرائيل روجت لما سمته (التطبيع مع العراق في المجال العلمي) خصوصا بعد نيسان ٢٠٠٣، فمنذ ذلك التاريخ وحتى تموز ٢٠٠٤ فقط عقدت في إسرائيل(٢٥) ندوة وحلقة نقاشية حول العراق، وقد حظيت هذه الندوات باهتمام كبير من المسؤولين الذين حرصوا على حضور بعضها مثل (إيهود أولمرت) وزير التجارة والصناعة سابقا ورئيس الوزراء الحالي و(سليمور لفنتز) وزيرة التعليم، و(تومي ليبد) وزير العدل، و(يوسف برتيسكي) وزير البنية التحتية و(يهوديت تأوت) وزيرة البيئة وغيرهم من المسؤولين السياسيين وحتى العسكريين الذين دعموا توجها إسرائيليا بهدف تفريغ هذا البلد من العلماء وأصحاب الكفاءات العلمية.

شهد العراق بعد ٩/٤/ ٢٠٠٣ ممارسات وقرارات غريبة طالت النخبة من العقول العراقية ودفعت اعداداً كبيرة من أساتذة الجامعات والعقول العراقية في دوائر ومعامل ومختبرات علمية عديدة في مرافق الدولة العراقية المختلفة للهجرة ومغادرة العراق، على الرغم من أن معظم هؤلاء العقول العراقية كانوا مهنيين.

بالإضافة إلى فقدان الأمن والاستقرار في العراق وانتشار عمليات الخطف والاغتيال لأسباب غامضة، وانقطاع إمدادات الطاقة الكهربائية والمحروقات وضعف وغياب الرعاية الصحية التي تزامنت مع مظاهر خطيرة أخرى في الجامعات العراقية والمراكز العلمية والصناعية العراقية

وتقدر المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة أن حوالي مليوني عراقي فروا من بلادهم إلى دول مجاورة كسوريا ولبنان والأردن واليمن ومصر إضافة إلى حوالي مليون و٨٠٠ ألف نزحوا إلى أماكن أخرى داخل العراق. وفي السياق ذاته، قال وزير الهجرة والمهجرين عبد الصمد رحمن سلطان إن عدد المهاجرين العراقيين في سوريا تجاوز ٧٠٠ ألف شخص وأن عدد المهاجرين العراقيين في الأردن يزيد على نصف مليون وأن عدد المهاجرين في كل من مصر وإيران يزيد على ١٢٠ ألفا.

ويرى الدكتور فواز جرجس من كلية سارة لورانس في نيويورك أن مشكلة نزوح العراقيين وهجرتهم تعكس انهيار المجتمع العراقي بقوله: (لو تمكن العراقيون من مغادرة العراق، فإن حوالي ٧٠ في المائة منهم سيغادرونه اليوم. هذا الأمر إنْ دل علي شيء فإنه يدل على أن أزمة اللاجئين تعكس انهيار واحد من أغنى المجتمعات في العالم. كان العشرات من العمال العرب من سوريا والأردن ومصر ولبنان يتوجهون إلى العراق سعيا وراء الرزق ولكن بهدف العودة إلى بلادهم لتحقيق مستوى معيشة أفضل. أما الآن فيرى السوريون واللبنانيون والأردنيون العديد من العراقيين في بلادهم دون أي أمل في ذلك المستقبل الأفضل).

المضحك المبكي أن دول الجوار العربية منها وغير العربية لم تكتف بتدخلها السلبي في العراق بل راحت تتاجر بمأساة ومعاناة اللاجئين العراقيين باعتبارهم استثمارا جيدا يدر الكثير من العائدات المالية للدول التي تستضيف هؤلاء اللاجئين. فالأردن وسوريا، وكلاهما من الدول ذات الموارد الصغيرة والمحدودة تروجان حملة إعلامية تدعيان فيها أن العبء الناجم عن تواجد اللاجئين العراقيين بات يؤثر على بنيتيهما التحتية وقطاعيهما التعليمي والصحي. وهو ادعاء تشكك في صحته الباحثة (مارينا اوتواي) من مركز كارنجي للسلام الدولي في واشنطن تقول إن الدولتين استطاعتا التكيف جيدا مع الواقع الجديد وتضيف(اوتواي) : (الأمر الذي يثير الدهشة هو أن سوريا استطاعت حتى الآن استيعاب اللاجئين العراقيين دون أية إشارة تدل على مدى الضغوط التي يسببها تواجد هؤلاء اللاجئين على أراضيها. فليس هناك ما يدل على أن البنية التحتية في سوريا انهارت نتيجة ذلك. والأمر نفسه ينطبق على الأردن).

ومن الغريب أن دول الجوار التي تطالب بمبالغ خيالية وتضع شروطا قاسية على تواجد العراقيين على أراضيها لم تتطرق في أي من المؤتمرات او المحافل التي بحثت شؤون اللاجئين العراقيين إلى حجم الاستثمارات والنشاط الاقتصادي والعلمي والأدبي والفني الذي أضافه وجود العراقيين على أراضيها ذلك الوجود الذي يتميز بنوعية من العقول والكفاءات العلمية والإدارية والاقتصادية والفنية والثقافية ساهمت وتساهم في إضافات جدية لاقتصاديات تلك الدول وهو أمر لابد أن يوضع في الحسبان في أي مفاوضات مستقبلية بشان اللاجئين العراقيين في دول الجوار وبقية دول العالم باعتبارهم ثروة وطنية عراقية مستثمرة في الدول التي يتواجدون بها.

## الكلدانيون

# لمحة موجزة من تأريخهم العريق

أ. فؤاد يوسف قزانجي
استاذ في المعلومات وباحث في التاريخ

الكلدانيون قبيلة ارامية هاجرت من غرب العراق القديم وانتقلت الى جنوب العراق وذلك في القرن العاشر قبل الميلاد، وعاشت في منطقة الاهوار (الايبارو) وكان مركزهم بيت ياقين (الكويت) اما بقية تجمعاتهم فكانت في بلدات بيت اموكاني وبيت شمالي وبيت داكوري.وقد تحالفوا مع سلالة البحر الثانية التي كانت تنتشر في الخليج (١) وتبعها قبائل آرامية اخرى استقرت في جنوب شرقي العراق اي في منطقة ميشان (الأهواز) لذا اطلق على هذه المقاطعة اسم بلاد ارومو. وقد تزعم هذه القبيلة الارامية امير بابلي ينحدر منها احد الملوك البابليين يدعى (مردوخ- ابال- ادين ادادينا) واسمه العبري (مردوخ بلادن) وبعد فترة من السيطرة الآشورية عليهم نادى الامير مردوخ بالثورة على الآشوريين ودعا الى الاستقلال وتنفيذ حرب عصابات في الاهوار لاخراج الجيش الآشوري، وتم له ما اراد بسرعة وتقدم مع مقاتليه الى مدن جنوب العراق حتى وصل الى المدن القريبة من بابل مثل كيش ونيبور وسيبار، حينذاك جهز الملك الآشوري تكلات للاصر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) حيث سرعان ما اجتاح المدن والبلدات الكلدانية، كما اجتاح مملكة البحر.

وكان مردوخ قد سعى للأتصال بملك يهودا في فلسطين لمساعدته ولكن بدون جدوى وسرعان ما وصل تكلات بلاصر الى قلب البلاد الكلدانية واضطر مردوخ ان يقدم له الجزية والطاعة مع اواني وقلائد من الذهب واحجار كريمة والتي كانت تجلب من ماكان او الهند.

واذا انتقلنا الى زمن سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) نجد اشارة لوجود مردوخ كملك لأرض البحر والكلدانيين اذ نعته سرجون بأبن ياقينى وملك الكلدانيين وملك كاردنياش.

وفي سنة ٧٠٩ ق.م عاود سرجون زحفه نحو جنوب العراق وسيطر بسهولة على دور ياقيني وحرر من سجونها سجناء من مدن سيبارونيبور وبورسيبا. كان مردوخ قد احتجزهم ربما اثناء استيلائه من تلك المدن في غياب الجيش الآشوري.

واثناء حكم الملك سنحاريب وحسبما جاء في اخبار المؤرخ البابلي برحوشا (بيروسيس) بأنه بعد اغتيال حاكم بابل (اكيسيسي) تقدم مردوخ ابال ادنيا واحتل بابل وما جاورها واصبح ملكا على جنوب العراق لمدة ستة اشهر. وبدأ يتصل مردوخ بأصدقاءه العيلاميين فأضطر سنحاريب ان يجهز جيشا ويتقدم من نينوى جنوبا على طول نهر (ثرثارا) حتى دور كوريكالزو وارسل مردوخ فرقة مسلحة بأسلحة ثقيلة لمواجهة سنحاريب بقيادة (تانابو) ولكن كانت النتيجة خسارة جيش مردوخ الذي هرب لوحده الى بلاد ارض البحر حلفاءه (٢) لكن سنحاريب استمر مندفعا بجيشه اللجب مسيطرا على معظم المدن الكلدانية وعلى مملكة ارض البحر التي تضم (٨٨) مدينة و(٨٢٠) بلدة وقرية كما سجلها سنحاريب.

وعندما صعد الملك سرجون على العرش بعد والده سنحاريب (٦١٨- ٦٦٩ ق.م) هاجم ابن اخر من ابناء الملك مردوخ واسمه (نابو- زير- كيتي- لشر) الذي كان ملكا على بلاد بابل وعندما وصل الجيش الاشوري لم يستطع الملك البابلي مواجهته ففر الى عيلام.

وقام في هذا الوقت رجال من قبيلته (بيت داكوري) الكلدانية بمهاجمة بابل وبورسيبا فما كان من اسرحدون الا ان ساق جيشه الى وسط بلاد الكلدانيين وقبض على شيخهم (شماش -ابني) واعدمه في بلاد اشور.

وفي عام ٦٤٨ ق.م ثارت شعوب بابل والكلدانيين والاراميين وبلاد ارض البحر مرة اخرى بقيادة شمش شموكين ملك بابل على حكم الآشوريين لكن اشور بانيبال استطاع ان يهزم تلك الجيوش.. وعين على ارض البحر حاكما هو (نابو- بيل- شوماتو) وبعد فترة من الزمن تحالف نابو بيل ملك بابل مع شمش شموكين ضد اشور بانيبال، وثار معظم اهل بابل مع الكلدانيين، وعلى نفس الوتيرة هرب الجيش البابلي الى ارض البحر عندما هاجم الجيش الأشوري ذلك عام (٦٥٠ ق.م) وبعد وفاة الملك القوي اشور بانيبال جاء بعده ابناء ضعفاء حينذاك حكم بلاد ارض البحر (نالو بلاصر) الذي تقدم واجتاح المنطقة، وأسس فيما بعد السلالة الكلدانية- البابلية وقد استقلت بلاده عن الامبراطورية الآشورية التي بدأت بالتفكك منذ عام ٦٢٦ ق.م.

وقد تحالف نابو للأصر مع الميدين عام ٦١٢ وتقدم لمهاجمة عاصمة الآشوريين نينوى.وكان الميديون قد سبقوا (نابو بلاصر) بالهجوم على نينوى لكن حدث ان تراجع الميدين لعل ذلك بسبب وجود خطر آخر يهدد بلادهم، حيث بقي جزء من جيشهم ينتظر الجيش الكلداني- البابلي مع قبيلة اخرى تدعى (الأومانمندا) وحاصروا نينوى لمدة ثلاثة اشهر (٣) ويعتقد المؤرخون ان احد اسباب انهيار سورها يعود الى فيضان نهر الخوصر مما ساعد على فتح ثغرة فيه وتم بعد ذلك فتح احد الأبواب للغزاة. وقد نهبت المدينة العظيمة نينوى وسلبت منها كنوزها وآلهتها واحرقت قصورها ومات الملك سين -شارا- اوشكن خلال ذلك الحريق وكان احد امراء الآشوريين وهو آشور- او بالت قد هرب بجيش صغير متجهاً لجهة الشمال الشرقي نحو عشيرته في حران بينما كان الجيش الميدين مايزال ينهب المدينة المفجوعة، سارع نبو بلاصر بالتقدم شمالا لاحتلال بلاد اشور حتى نصيبين مكتسحاً جبوب المقاومة الآشورية.

وعند وفاة الملك نبوبلاصر تسلم الملك والجيش ابنه نبوخذنصر الذي كان ملكاً متميزا وقائدا ذا قابليات فائقة (٤) واستطاع نبوخذنصر ان يواجه بعد عبوره نهر الفرات الجيش المصري القوي في كركميش والذي كان قد جاء لمساعدة اخر امراء اشور ويقهره.

وبعد القضاء على الجيش المصري كانت نهاية الامبراطورية الآشورية حيث اندفع نبوخذنصر الى حران ليقضي على البقية الباقية من المقاومة الآشورية.. وحينما عاد الى بابل عام ٦٠٩ كانت مراسيم التتويج بداية لامبراطورية كلدانية- بابلية جديدة يهابها الاعداء ويحترمها الاصدقاء لكن ملوك العصر البابلي الحديث لم يتخذوا بعد تأسيس مملكتهم لقب ملك ارض البحر بل اتخذوا جميعهم لقب ملك بلاد بابل وظلت العلاقات قوية بين بابل ومنطقة ارض البحر والخليج الكلداني، ذلك ولا ريب لأن جميعهم من اصول واحدة، وكانت الدولة الكلدانية مقسمة اداريا الى ثلاث وعشرين مقاطعة ادارية في كل مقاطعة حاكم يعينه الملك، وفيها حاكم ارض البحر واسمه (ايا- دايان) والمعروف ان السلالة الملكية الكلدانية لم تدم طويلا اذا ان حكم ملوكها لم يتجاوز المائة سنة بين ٦٢٥ ق.م وهم نابو بلاصر ونبوخذنصر ونبوخذنصر الثاني (أميل- مردوخ) ثم نركال- شار- اوصر ولباشي- مردوخ ثم نبونائيد. وفي الحقيقة ان السلالة البابلية الكلدانية الاخيرة اكملت مظاهر الحضارة البابلية التي كانت اعظم الحضارات الانسانية اذ فيها اكتملت العلوم والآداب والميثولوجيا في بلاد الرافدين وهم الذين نشروا الكتابة واللغة الاكدية الى الهلال الخصيب وايران وعرفتها مصر الفرعونية ايضا كما نشأت معها اللغة الارامية خاصة في التجارة والدبلوماسية من الاقوام الفارسية والاخمينية والفرثية والساسانية.

ومن بابل عرفنا الرياضيات ومبادئ الهندسة وتقسيم اليوم والاسبوع والشهر والسنة وهم في علم الفلك والجغرافيا كانوا السباقين الى معرفة حركة النجوم وحركة الارض ورصد الكواكب ومراقبة سقوط النيازك وكان البابليون قد عبدوا لأول مرة الها واحدا وهو مردوخ ودعو اله البلاد اي الاله الوطني وتعد خطوة متقدمة في معرفة الاله الواحد الخالق لكل شيء وتطورت لدى البابليين الشرائع والقوانين مما ادى الى استقرار البلاد ونضوج العلم والادب والفن والعمارة.

وفي عهد ملكهم العظيم نبوخذنصر الثاني (٦٠٥- ٥٦٢ ق.م) اتسعت الامبراطورية البابلية حتى احتلت الهلال الخصيب ووصلت الى اطراف مصر وفي استيلائهم على مملكة اليهود في فلسطين هجروا اهلها رسمي بالسبي البابلي.

وعلى الرغم من قساوة التهجير الذي كان معتادا في العصور القديمة الا ان المعتقد ان اليهود اطلعوا على كثير من الافكار والاراء التي احتوتها الكتابات والملاحم البابلية المتعلقة بالتكوين وبداية الخلق والطوفان ووظفوا هذه الافكار (فكرة تأسيس العالم) في سفر التكوين الذي يعد من اهم الاسفار اليهودية (٥) والمعروف ان الملك كورش الكبير الفارسي قد غزا بلاد ارض البحر قبل ان يحتل بابل في تشرين الاول من عام (٥٣٩ ق.م) ويظهر ان الاخمينين قد اتبعوا سياسة الآشوريين في تعيين حكام لبلاد ارض البحر من اهلها، فكان حاكمها هو (دايان- شار- اوصور) وهو اسم اكدي كلداني.

وظلت مناطق الاهوار وميشان وفرات - ميشان وبيت هوزاي محتفظة بمكوناتها الارامية والكلدانية والعيلامية لكنها كانت قد فقدت استقلالها. وهذا يعني ان هذه البلاد وقعت تحت النفوذ الفارسي فترة من الزمن حتى مجيء اليونانيين بقيادة الاسكندر المقدوني للعراق سنة ٣٣٠ ق.م الذي مر بمنطقة ميشان وهو عائد من انتصاراته على الفرس والهنود.

وقد بعث الاسكندر الحياة في تلك المنطقة وامر بتشييد مدينة خاراكس اوخارسين CHARASSENكما بني ميناءا باسم بيلا PELLAوميناءا اخرا في جزيرة ايكاروس (فيلكا)، واختار السلوقيون شيخا من شيوخ المنطقة من المعتقد انه ارامي او كلداني- بابلي الأصل حاكما على المنطقة وكانت هذه الخطوة بداية لتأسيس مملكة ميشان في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد وقد ورد ذكرها في المصادر الارامية والعبرانية بهيئة ميشان وفي الفارسية ميشون وفي المصادر الكلاسيكية ميسين messemوذكر الاستاذ طه باقر عنها قائلاً: "ان جل سكانها من الاراميين". وخلال حكم الملك السلوقي انتيوخس الثالث سنة ٢٢١ ق.م كان حاكم منطقة ميشان او الاحواز بما فيها المدينة الرئيسة خاراكس يدعى (بايكادس PYKADESوجاء بعده (نوميونوس) الذي قام بحملة بحرية وبرية عسكرية سار فيه مع اسطول يرافقه على طول الساحل واعاد انتيوخس الرابع تعمير مدينة خاركس وعين عليها حاكما هو (سبا وسينس).

عندما ضعف السلوقيون وتعاظمت قوة الفرثيين اقتنع الامير هسيا وسينس باعلان استقلال امارة ميشان تحت حكم الفرثيين وضرب له نقودا فيها صورته على وجه من العملة وصورة تلك الفرثيين على الوجه الآخر.

ويظهر ان سبا وسينس كانت له شعبية في بلاد بابل ومؤيدون كثر فيها بدليل الرقيم المدون باللغة الاكدية من سنة ١٢٧ ق.م الذي اعترف بوجود ملكين في بابل واستطاع ان يحكم بابل حتى عام ١٢٠ ق.م.

حينما هاجمه الملك الفرثي (متريديتس الثاني) في تلك السنة واستمر الملك الميشاني محافظا على منطقته على الرغم من ابعاده عن بابل.

ويظهر ان مملكة ميشان التي كانت تتحدث بالارامية والفارسية لها علاقات متميزة مع التدمريين ومع الانباط القادمين من بطرا (البتراء) التي اصبحت تميل للنفوذ الروماني.

ومن ملوك ميشان (بتراويوس الثاني) الذي نقرأ على النقود التي سكها لقبين هما يوركتيس وسوتير اي العاهل والمنقذ كما نلحظ في نقوده صيرورة لباسه الملكي ذا طابع شرقي..

وخلف هذا الملك العاهل (اتابنلوس) ثم (ابزكلوس) وكانت مملكة ميشان الكلدانية- الارامية البودقة التي تضم مختلف الاثنيات الكلدية والنبطية والفارسية، كانت لها علاقات في بداية القرن الاول الميلادي مع مملكة حدياب الارامية، وكان احد الامراء الحديابيين وهو (ايزات) قد قابل احد التجار اليهود في ميشان واقتنع بالايمان باليهودية فلما عاد اصبح ملكا على حدياب بين ٣٠ -٣٦ م بحسب ما جاء في كتاب (تاريخ اليهود) لفلافوس جوزيفوس: وظلت المكلة قائمة حتى اكتساحها من قبل الملك (متر يدتيس) الرابع في الاعوام (١٢٨ -١٤٧ م) واحتلال عاصمتها ميشان (كرخا) ونقل اهاليها الى مدينة فرات - ميشان التي كانت واقعة على نهر دجلة القديم جنوب المحمرة بحوالي (١٨ كم) وفي تلك الفترة دخلت المسيحية الى ميشان خاصة في مدينة جنديشابور وكانوا قد قدموا من مدينة انطاكيا من اصول رومانية وارامية قد اهتدوا الى المسيحية وأخذ يطلق عليها بيت هوزاي التي جاءت منها كلمة الاهواز، وسميت جنديشابور من قبل ساكنيها (بيت لافاط) اي مكان الهزيمة وانتشرت المسيحية في منطقة بيت قطرايا (قطر) وفي البحرين وفرات - ميشان (قرب البصرة فيما بعد) ولعل الكلدانيين والاراميين قد اختلطوا معا في مدن كشكر وفرات ميشان ودور قني وجنديشابور وغيرها واصبحت لغتهم هي اللغة السريانية الشرقية والتي استمر المسيحيون العراقيون منذ القرن الثالث الميلادي وحتى الوقت الحاضر يتحدث بها معظمهم (٧).

**المصادر**

**(١) دانيال